القوة الناعمة ومكانة الدولة
مصر نموذجاً

الأستاذ الدكتور/ سامي الشريف

عميد كلية الإعلام بالجامعة الحديثة للتكنولوجيا والمعلومات

وزير الإعلام ورئيس اتحاد الإذاعة والتليفزيون الأسبق

مصر

على مدى التاريخ تسعى كل الأمم والحضارات لامتلاك أسباب القوة وتوظيفها؛ لبسط نفوذها وتحقيق أهدافها، وتمثل القوة حجر الزاوية في العلاقات الدولية، ويعرفها الخبراء بأنها: "القدرة على التأثير في سلوك الآخرين دولاً أو شعوبًا، وإجبارهم على القيام بعمل وفقًا لأهداف سبق التخطيط لها من قبل الطرف المستخدم للقوة".

ولطالما انصرف تعريف القوة إلى الجانب العسكري بوصفه العامل الأقوى في حسم المعارك وتحقيق الانتصار، وظل مفهوم القوة الصلبة هو المسيطر على الكتابات السياسية لسنوات طويلة، إلا أن الحضارات القديمة لم تغفل استخدام أشكال أخرى من القوة لخدمة مصالحها وأهدافها.

واستُخدم مصطلح "القوة الناعمة" في الأدبيات السياسية المعاصرة منذ صاغه جوزيف ناي عام ١٩٩٠م، ويشير مفهوم القوة الناعمة إلى أن يكون للدولة قوة روحية ومعنوية من خلال ما تجسده من أفكار وقيم ومبادئ وأخلاق، ومن خلال ما تقدمه من دعم في مجال حقوق الإنسان، والبنية التحتية، والثقافة، والفنون؛ مما يؤدي بالآخرين إلى احترام هذا

الأسلوب، والإعجاب به، ثم اتباعه.

والقوة الناعمة سلاح مؤثر يحقق الأهداف عن طريق الجاذبية والإقناع، بدلاً من الإرغام والإجبار ودفع الأموال، وتعمل القوة الناعمة جنبًا إلى جنب مع القوة الصلبة، ولكل منهما الوقت المناسب في الظهور، والجرعة المناسبة في الاستخدام.

ويهدف هذا البحث إلى التعرف على مفاهيم القوة الناعمة، ومصادرها، ومقارنتها بالعديد من المفاهيم الأخرى التي تسعى من خلالها الدول لبناء صورتها وسمعتها لدى الآخرين، في محاولة لتأصيل هذة المفاهيم، والتعرف على كيفية توظيفها لدعم مكانة الدول.

ولما كانت مصر واحدة من أهم وأبرز القوى الإقليمية بتاريخها الطويل وحضورها الطاغي على الساحتين الإقليمية والدولية، وبما تملكه من مصادر القوة الناعمة؛ فسوف يناقش هذا البحث قوة مصر الناعمة، وكيفية توظيفها لخدمة أهداف سياستها، ودعم مكانتها المستحقة.

القوة في العلاقات الدولية:

على مر التاريخ اهتمت الأمم والحضارات المختلفة بامتلاك كل عناصر وأسباب "القوة"؛ لفرض سيطرتها وبسط نفوذها على الأمم والحضارات الأخرى والتفوق عليها، وكانت "القوة" وما تزال عاملاً رئيسًا من عوامل بناء الدول واستمرارها.

ويمثل مفهوم "القوة" حجر الزاوية في العلاقات الدولية، ولقد تعددت تعريفات "القوة" في مجال العلاقات الدولية، فهذا سبيكمان – Nicholas Spykman – يعرف القوة بأنها : "القدرة للبقاء على قيد الحياة، والقدرة على إملاء إرادة الشخص على الآخرين الذين لا قوة لهم، وإمكانية إجبار الآخرين ذوي القوة على تقديم تنازلات".

وتعرف كلية الحرب الأمريكية مفهوم القوة القومية للدولة بأنها : "الإمكانيات أو القدرات التي تمكن الدولة باستخدامها من الوصول إلى أهدافها القومية في الصراع الدولي، وهي الطاقة العامة للدولة؛ كي تسيطر وتتحكم في تصرفات الآخرين".

كما تُعرف القوة بأنها: "القدرة على التأثير في سلوك الآخرين؛ للحصول على النتائج

وتحقيق الأهداف التي يريدها الطرف المستخدم لها".

ويعرف بعض الخبراء القوة بأنها: "القدرة على تغيير سلوك الآخرين دولاً أو شعوبًا وإجبارهم على القيام بعمل أو الامتناع عن عمل وفقًا لأهداف سبق التخطيط لها من قبل الطرف المستخدم للقوة".

ويؤكد كارل فريدريك – Carl Friedrich Gauss– على أن القوة تعني: "إنشاء علاقة بين طرفين، يستطيع الطرف الأول من خلالها أن يجعل الطرف الثاني يفعل ما يريده، ويتصرف بطريقة تضيف لمصالح الطرف مالك القوة، ويحقق أهدافه".

ولقد انصرفت معظم تعريفات القوة إلى الجانب العسكري؛ باعتبار أن القوة العسكرية هي العامل الحاسم في تحقيق الانتصار، والقدرة على الاستمرار لدى مختلف الأمم والحضارات على مر العصور.

ولم تعر كثير من كتابات المفكرين، من أصحاب المدرسة الواقعية، أي اهتمام للقيم أو المضامين الأخلاقية في العمل السياسي، بل اعتبروا أن الغاية تبرر الوسيلة، وأن صياغة السياسة الخارجية للدول ليست ترفًا، بل هي صراع من أجل البقاء والاستمرار، ففي الوقت الذي أكد فيه ميكيافيللي على أن القوة من العناصر الأساسية لقيام الدول، وأنها المصدر الوحيد للحفاظ على بقائها؛ دعا أمراء إيطاليا إلى السعي لامتلاك كل أسباب القوة، مخاطبًا إياهم: "أن يكون المرء مخوفًا أهم بكثير من أن يكون محبوبًا".

وسبقه في ذلك ابن خلدون الذي أشار إلى أهمية القوة في بناء الدول واستمرار بقائها، وأكد على ضرورة القوة في وجود الدول والحفاظ على استمرار الحكم، واعتقد أن القوة السياسية تتمثل في الاستبداد والتأثير والإغراء، كما عزل العمل السياسي عن أي مضمون أخلاقي، مجسدًا مبدأ الغاية تبرر الوسيلة، والمتمثل في كيفية الاستيلاء على السلطة والحفاظ عليها، وسادت مفاهيم "القوة الصلبة" لسنوات طويلة باعتبارها أقوى وأمضى الأسلحة لتحقيق الأهداف.

ومع التطورات التكنولوجية والعلمية التي شهدها العالم، وتفاقم تكاليف شن الحروب

العسكرية وامتلاك أسلحة الدمار الشامل، أصبحت الحروب المباشرة عبئًا اقتصاديًّا ضخمًا على الدول المعاصرة، وأصبحت مصدر نزيف مادي وبشري ربما يؤدي إلى زوال دول بأكملها.

والتفت عالمنا المعاصر لأشكال أخرى من القوة بديلاً عن القوة العسكرية، وتجاوز مفهوم القوة في مضمونه الفكري المعنى العسكري الشائع إلى مضمون حضاري أوسع؛ ليشمل القوة السياسية، والقوة الاقتصادية، والقوة الاجتماعية، والقوة الثقافية، والقوة التقنية.

وسرعان ما تغير مفهوم القوة، ولم يعد مقبولاً أن يكون معيار القوة العسكرية هو العنصر الحاكم في العلاقات الدولية، أو حتى داخل الأنظمة السياسية نفسها.

والواقع أن القوة صناعة وإرادة فرضتها طبيعة العلاقات الدولية التي قد تتسم بالفوضى وغياب السلطة الحاكمة والضابطة، الأمر الذي فرض على الدول السعي بشتى الطرق إلى صنع وامتلاك مصادر متنوعة للقوة، وإيجاد السبل المختلفة لتفعيلها، بوصفها الضمان الحقيقي لأمنها واستقرارها وتحقيق مصالحها. والقوة –أيًّا كانت طبيعتها– تظل شيئًا نسبيًّا، فقوة أي دولة تقاس بمقارنتها بما تمتلكه الدول الأخرى المنافسة لها.

خصائص قوة الدول:

تحدد مصادر القوة التي تمتلكها الدولة أبعاد الدور الذي يمكن أن تقوم به في المجتمع الدولي، أو على مسرح السياسة الدولية، وتحدد من خلاله علاقاتها بالقوى الخارجية الدولية.

وتتنوع مصادر القوة التي تمتلكها الدولة بين العديد من العوامل، لعل من أهمها: العوامل الطبيعية، والعوامل الجغرافية، والعوامل البشرية، والعوامل الاقتصادية، والعوامل العسكرية، و العوامل السياسية، والعوامل الثقافية، وربما لا تعدم أي دولة في العالم من عامل أو أكثر من تلك العوامل التي تشكل عناصر قوتها، إلا أن توفر مصادر القوة لا يعني شيئًا ما لم يرتبط بالقدرة على التدخل الواعي لتحويلها إلى طاقة مؤثرة وسلاح فعال يمكن توظيفه واستثماره، والشواهد في عالمنا المعاصر على ذلك كثيرة:

وتتميز قوة الدولة بالعديد من الخصائص، أهمها:

– القوة وسيلة لممارسة النفوذ والتأثير، تهدف إلى تحقيق مصالح الدولة.

– يتغير وزن قوة الدولة وفقًا لقدرتها على تحويل مصادر القوة المتاحة، أو الكامنة، إلى قوة فاعلة.

– تتصف القوة بندرتها؛ لذلك تحرص الدول على ما تملكه، وتحاول عدم تشتيت جهودها.

– القوة بطبيعتها شيء نسبي يقاس بالمقارنة بقوة الدول الأخرى المنافسة.

– تتدرج ممارسة القوة من التأثير بالطرق الدبلوماسية من جهة، إلى أسلوب الإجبار والقسر من جهة أخرى، وغالبًا ما يكون اللجوء للقوة نتيجة العجز عن الوصول للحلول بالطرق السلمية.

مفهوم القوة في الإسلام:

لقد اهتم الدين الإسلامي اهتمامًا شديدًا بمفهوم القوة، ودعا أتباعه إلى الأخذ بكل أسبابها، ووردت كلمة القوة بمشتقاتها في القرآن الكريم في ست وعشرين آية، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ﴾[1]، وقوله تعالى: ﴿ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ ﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ ﴾ [3]، وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾[4].

كما حثت السنة النبوية الشريفة على الأخذ بأسباب القوة، فعن رسول الله ﷺ أنه قال: "المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير"[5].

وأكد الإسلام – من خلال آيات القرآن الكريم وأحاديث النبي ﷺ أن مفهوم القوة لا ينصرف إلى القوة العضلية بالنسبة للأشخاص أو القوة العسكرية بالنسبة للأمم فحسب، بل

اتسع مفهوم القوة ليشمل قوة الإيمان والتوكل على الله، وقوة العقيدة، والقوة في قول الحق، والقوة في الدفاع عن المظلومين، والقوة في العبادة والسلوك، والقوة في تحصيل المعارف والعلوم. وبقوة العقيدة والإيمان جعل الله لرسوله من الضعف قوة، ومن القلة كثرة، ومن الفقر غنى، لقد كان محمد ﷺ فردًا فصار أمة، وكان أميًّا فعلم الملايين، وكان فقيرًا فصار أغنى الأغنياء، يقول تبارك وتعالى: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَآلًّا فَهَدَىٰ ۝٧ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[٦].

وإذا تدبرنا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ ﴾[٧]، فإننا نجد أن كلمة "قوة" جاءت نكرة تفيد العموم، كما جاء قبلها حرف "من" الذي يعني جزءًا وليس كُلاً، أي أن للقوة أنواعًا كثيرة، فكل ما يصلح أن يكون مصدرًا للقوة مما أحله الله؛ فنحن مطالبون بإعداده، ومن هنا فإن الأخذ بأسباب القوة- على اتساع مفهومها- فرض عين على المسلمين أفرادًا وجماعات ودولاً.

والذي يراجع تاريخ البشرية، يجد أن "القوة" بمعناها المحض لم تستطع أن تحافظ على بقاء الحضارات والأمم والإمبراطوريات السابقة، والتي كانت أعظم قوة وشأنًا من غيرها، فلا نجد لها اليوم أثرًا يذكر.

ويحدثنا القرآن الكريم في أكثر من موضع عن حال الأمم السابقة التي كفرت بأنعم الله، واستحلت ما حرمه الله عز وجل؛ فاستحقوا العذاب والدمار، وأتى الله بنيانهم من القواعد، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾[٨].

وإذا تتبعنا تاريخ الحضارات والأمم السابقة نجد أنه كلما عصت أمة ربَّها عز وجل آجلها مدة من الزمان؛ لعلهم يتوبون أو يرجعون، بل إنه مع عصيانهم لله عز وجل فإنه سبحانه وتعالى قد يفتح عليهم بالنعم والخيرات؛ أملاً في توبتهم أو استغفارهم، فإذا أصروا على عصيانهم أتاهم أمر الله تعالى، يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ

شَيْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴾[٩].

ويسوق لنا القرآن الكريم العديد من الأمثلة للأسباب التي أدت إلى زوال الأمم السابقة على قوتها، وجاء أكثرها: الظلم، والكفر، والطغيان، وكثرة المعاصي والمنكرات، والعتو، والغرور، والكبر، والغلو في الدين، والكفر بالنعم، والإقبال على محرمات الدنيا والتنافس على ملذاتها، وغياب القدوة.

ولا يعني زوال الدول والأمم أو موتها: الموت بالمعنى الحرفي المباشر، أي اختفاؤها المادي من الوجود فقط، بل إن موت الأمم والدول قد ينصرف إلى معنى آخر، فقد توجد دول وأمم على قيد الحياة ولكن بلا وزن، أو تأثير، أو دور فاعل في عالمها المحيط.

الشاهد من ذلك أن القوة وحدها – بمعناها المتعارف عليه – قد لا تُعين الأمم والحضارات على الصمود في معركة الصراع من أجل البقاء.

وقد أعزى الكثير من المفكرين والخبراء ذلك إلى أن الأمم قد تشيخ من داخلها عندما تفقد قدرتها على مواجهة التحديات الداخلية والخارجية، أو عندما تفقد قوتها الأخلاقية والقيمية والروحية، كما يقول توينبي – Arnold J. Toynbee–: إن الأمم عندما تشهد انهيارًا قيميًّا وأخلاقيًّا ودينيًّا فإنها تمضي إلى الجمود، وإلى العجز عن الابتكار والتجديد والإبداع، ومن ثم العجز عن مواجهة التحديات، وأطلق توينبي على ذلك: "شرخ في الروح"، ويضيف قائلاً: "إن الحضارات لا تموت قتلاً وإنما تموت انتحارًا"، ويتفق ذلك مع ما ذكره جلال الدين الرومي: "الأمم تموت عندما لا يُصبح بمقدورها أن تميز بين الحق والباطل".

ولقد أكد العديد من المفكرين على أن قوة الأمم أيًّا كان حجمها – ما لم تتحل بالقدرة الروحية والأخلاقية – لا تستطيع البقاء والاستمرار، وأن معظم أسباب انهيار الأمم إنما يُعزى إلى أسباب وعوامل داخلية، وفي القلب منها: انهيار القيم والقوة الأخلاقية .

وفي كتابه الشهير "انهيار وسقوط الإمبراطورية الرومانية"، يحدد إدوارد جيبسون –Edward Gibson– عدة أسباب تفسر انهيار وموت الأمم، من أهمها:

– انهيار مكانة وقدسية البيت والأسرة، باعتبارهما أساس المجتمع الإنساني.

– انهيار مسئولية الفرد، أي إحساس الفرد بمسئوليته تجاه المجتمع .

– انهيار مكانة الدين في المجتمع، بوصفه قوة مرشدة وموجهة وهادية لأبناء المجتمع تفكيرًا وقيمًا وسلوكًا.

ويقول المؤرخ الأمريكي ويل ديورانت –Will Durant–: إن من أهم مرتكزات بقاء الحضارات وجود معايير قيمية وأخلاقية متعارف عليها لتكون موجهًا وحافزًا، إلى جانب وجود دين أو عقيدة أساسية حاكمة، وأن انهيار أي من هذة المعايير كفيل بتدمير الحضارة وانهيارها.

ومن هنا فإن "القيم الروحية والأخلاقية" تأتي على رأس آليات ومصادر بقاء الأمم واستمرارية عطائها، إلى جانب الأخذ بأسباب القوة التقليدية، فلقد انتشر الإسلام وساد في ربوع الدنيا كلها من خلال ما قدمه من نموذج قيمي وحضاري مختلف، قائم على الجاذبية والإقناع بقيمه وأخلاقه وعطائه الروحي، واستطاع الإسلام أن يعيد تشكيل المجتمعات التي انتشر فيها ثقافيًّا وحضاريًّا ودينيًّا لتصبح جزءًا من العالم الإسلامي، وليصبح الإسلام ثاني أكثر الأديان انتشارًا في العالم، ويقارب عدد أتباعه أكثر من ١,٨ مليار مسلم ينتشرون في كل قارات العالم.

وفي الوقت الذي زالت فيه حضارات وانهارت أمم قوية طالما حاربت الإسلام وأتباعه، كالفرس والروم والمغول والتتار، بقي الإسلام وانتشر بفعل ما قدمه للعالم من عطاء روحي وقيمي، أبهر ولا يزال يبهر شعوب العالم في مختلف المجتمعات.

ويمكننا القول – بكثير من الاطمئنان–: إن ما قدمه الإسلام من قوة جذب وإقناع يعد باكورة لما يُطلق عليه اليوم القوة الناعمة، والتي تحرص على دعمها وتعظيم شأنها كل الدول والحضارات؛ إذا ما أرادت لنفسها البقاء والاستمرار.

مفهوم القوة الناعمة:

يعد مصطلح القوة الناعمة–Soft Power – من المصطلحات المعاصرة في الأدبيات السياسية، بدأ استخدامه في العلوم السياسية والعلاقات الدولية بعدما صاغة جوزيف ناي

– Joseph Nye – عام ١٩٩٠م في كتابه: "وثبة نحو القيادة الطبيعية المتغيرة للقوة الأمريكية"، وأعاد استخدامه مرة أخرى فى كتابه: "مفارقة القوة الأمريكية " عام ٢٠٠٢م، ثم عاود تطوير المفهوم في كتابه: "القوة الناعمة وسائل النجاح في السياسة الدولية" والصادر عام ٢٠٠٤م، ويتحدث مفهوم القوة الناعمة عن ضرورة استخدام الدول والأمم المختلفة لمصادر أخرى لقوتها، غير القوة التقليدية المتمثلة في القوة العسكرية والاقتصادية؛ للتأثير في الآخرين وحماية مصالحها وتحقيق أهدافها.

ويُشير مفهوم القوة الناعمة كما حدده ناي إلى: "أن يكون للدولة قوة روحية ومعنوية من خلال ما تجسده من أفكار ومبادئ وأخلاق، ومن خلال الدعم الذي تقدمه في مجال حقوق الإنسان، والبنية التحتية، والثقافة، والفنون، مما يؤدي بالآخرين إلى احترام هذا الأسلوب، والإعجاب به، ثم اتباعه".

وتصدر كتاب القوة الناعمة لناي فور صدوره قائمة الكتب الأكثر مبيعًا في الولايات المتحدة الأمريكية، وسرعان ما أصبح مصطلح القوة الناعمة جزءًا أساسيًّا في لغة القادة السياسيين، والكتاب، والمفكرين، والإعلاميين، والمثقفين في كل أنحاء العالم.

ولسنا مع أولئك الذين يرون أن مفهوم القوة الناعمة لم يظهر إلا من خلال جوزيف ناي في التسعينيات من القرن الماضي، فقد دللنا في الصفحات السابقة على أن انهيار الكثير من الحضارات والأمم إنما جاء لأسباب داخلية، كان على رأسها إغفال الجوانب القيمية والروحية والأخلاقية، سواءً في معاملاتها مع شعوبها أو معاملاتها مع الآخرين، فاستخدام أنواع أخرى من القوة غير القوة التقليدية عرفته حضارات وأمم سابقة منذ فجر التاريخ، ووظفته لخدمة مصالحها وتحقيق أهدافها، فقد حرصت الحضارات القديمة على المزج بين ثقافتها وثقافات الدول والشعوب التي احتلتها، ولطالما استخدم الحكام في مختلف الحضارات أساليب عدة تجمع بين القوة الصلبة والقوة الناعمة؛ للتودد لشعوبهم، أو للتقرب للشعوب في الدول الأخرى .

ولعل جوزيف ناي استفاد في سك مفهوم القوة الناعمة من كتابات كثيرة لمفكرين سبقوه بعشرات السنين، فقد أشار المفكر والفيلسوف الإيطالي أنطونيو غرامشي – Antonio Gramsci– إلى

نظرية الهيمنة الثقافية، والتي تتحدث عن العلاقة الوثيقة بين سيطرة الدولة وهيمنة الثقافة، وأن هيمنة الدولة في المجتمعات الرأسمالية إنما تأتي من خلال المدرسة، مرورًا بالمؤسسة الدينية، وانتهاءً بدوائر المال والإعلام، وأن هذه المؤسسات مجتمعة تخلق صورة جيدة لدى العامة عن النخبة السياسية؛ بهدف السيطرة على عقولها، وضمان عدم خروجها عن سياق المجتمع الرأسمالي.

كما نجد في كتابات جورج كينان– George Kennan– إشارات لمفهوم القوة الناعمة، فقد كانت كتاباته بداية لوضع إستراتيجية التحول من الاعتماد الكامل على القوة الصلبة إلى الاعتماد على القوة الناعمة.

ويعرف – Leun Lee– القوة الناعمة بأنها: "القدرة على خلق التفضيلات والصور الذهنية للذات، عن طريق المصادر الرمزية والفكرية؛ التي تؤدي إلى تغيرات سلوكية في أفعال الآخرين".

ويرى ميشيل فوكولت – Michel Foucault– أن القوة الناعمة هي: "إجبار وإلزام غير مباشرين، وسجال عقلي وقيمي، يهدف إلى التأثير على الرأي العام في داخل الدولة وخارجها".

كما أفاد جوزيف ناي في تعريفه للقوة الناعمة من كتابات روبرت دال– Robert Dahl– الذي عرف القوة بأنها: "قدرة طرف ما على التأثير في أفعال غيره من الأطراف، سواء باستخدام وسائل الترهيب والإجبار أو بوسائل قوة الترغيب"، ويبدو أن ناي اعتمد في تعريفه للقوة على المفهوم الذي صاغه روبرت دال مع فارق جوهري، وهو التأكيد على أن القوة تعني الترغيب وقوة الجذب المعنوية.

وأيًّا كان الجدل الذي دار حول المصدر الحقيقي لتعريف القوة الناعمة، فإن العديد من المراجع اعتبرت أن هذا المصطلح من صناعة وصياغة جوزيف ناي، الذي اجتهد في تطويره وإضفاء أكبر قدر من المرونة عليه، بحيث يكون بعيدًا عن الجمود، وقابلاً لاستيعاب العديد من المفردات التي يمكن أن تضاف للقوة الناعمة، وتكسبها مزيدًا من القدرة على التأثير.

مصادر القوة الناعمة:

بحسب " ناي" فإن القوة الناعمة سلاح مؤثر يحقق الأهداف عن طريق الجاذبية والإقناع بدلاً من الإرغام والإجبار ودفع الأموال، ولا يعني ذلك بحال من الأحوال اختفاء أو تراجع مكانة القوة الصلبة، بل إن القوة الناعمة تعمل جنبًا إلى جنب مع القوة الصلبة، ولكل منهما الوقت المناسب في الظهور، والجرعة المناسبة في الاستخدام.

ويحدد " ناي" ثلاثة مصادر رئيسية للقوة الناعمة، وهي:

١ – الثقافة:

ويقصد بها مجموعة العلوم، والفنون، والقيم، والأفكار، والأخلاقيات، والقوانين، والعادات، والتقاليد، التي تميز دولة أو جماعة أو شعبًا عن غيرهم من الدول والجماعات والشعوب ، وكلما حملت ثقافة شعب ما عوامل الجذب والإثارة دفعت الشعوب الأخرى إلى الإعجاب بها، ومحاولة تقليدها وتبنيها، ومن ثم يكتسب هذا الشعب أو الدولة مكانة أعلى على المستوى الدولي.

ولا شك أن الصناعات الثقافية من أفلام، ومسلسلات، وكتب، وألبومات غنائية، وفرق موسيقية، بما تحمله من قيم وهويات ودلالات، يمكنها أن تفتح أبوابًا واسعة أمام الحوار المثمر البناء بين مختلف الشعوب والحضارات.

وقد مكنت وسائل الاتصال الحديثة والأقمار الصناعية وشبكة الإنترنت هذه الصناعات من النفاذ والتمدد والوصول إلى كل شعوب العالم، وظهر ما يطلق عليه "إعلام العولمة"، وهو إعلام لا يلتزم بالحدود الوطنية، ويمكننا أن نحدد أهم ملامح هذا الإعلام فيما يلي:

– هو إعلام استهلاكي يركز على تنميط الأذواق الاستهلاكية، بهدف إعادة تشكيل الحياة الاجتماعية للشعوب وفقًا لمصالح الأطراف المهيمنة على وسائل هذا الإعلام.

– هو إعلام يدعو إلى الدخول في ركب الثقافة الغربية بكل إيجابياتها وسلبياتها، في مقابل الجور والتعدي على الثقافات الوطنية للشعوب الأخرى.

– هو إعلام يتقن أساليب التأثير في المتلقي، من خلال تقديم المواد الإعلامية السهلة البسيطة المشوقة وسريعة التاثير.

– هو إعلام تسيطر عليه الآلة الإعلامية الغربية بكل مصادر قوتها؛ لتفرض نمطًا ثقافيًّا واحدًا.

ويدخل في إطار التأثير الثقافي ما تحرزه الدولة من تقدم علمي وأدبي وفني ورياضي، كعدد الإصدارات العلمية والأدبية، وعدد علمائها الذين فازوا بجوائز عالمية كجائزة نوبل، وموقعها من إحراز البطولات العالمية في مختلف الرياضات. كما أن ما تملكه الدولة من وسائل إعلام تقليدية وحديثة، وأعداد مقاعد السينما والمسرح المتاحة لمواطنيها؛ يُعد أحد معايير ثقلها الثقافي والحضاري.

وتنفق دول العالم أموالاً طائلة بهدف تعزيز مكانتها العلمية والثقافية والفنية والرياضية؛ ليزداد حضورها، وتتحسن صورتها على المستوى الدولي.

٢– القيم السياسية:

وهي القيم والمفاهيم التي تعكسها السياسات التي تمارسها الدولة أو الحكومة الوطنية، وتشمل مدى تطبيقها للديمقراطية، واحترامها لتبادل السلطة، واحترام الرأي والرأي الآخر، وما يحظى به مواطنوها من حقوق، ومدى ما توليه من احترام للمرأة والأقليات العرقية والدينية.

ويشكل نظام الحكم وكيفية اختيار نواب وممثلي الشعب في المجالس النيابية عاملاً مؤثرًا ومهمًّا في تقييم الدولة من حيث ما تقدمه للعالم من قيم سياسية معتبرة. ويندرج تحت ذلك مؤشرات الحكومة، وأسلوب الحكم، ودرجة الشفافية، والعدالة الاجتماعية، والمساواة بين الجنسين، ودرجة الثقة في الحكومة.

٣– السياسة الخارجية والحضور على المستوى الدولي:

تكتسب أي دولة احترام العالم لها من خلال ما تعبر عنه سياستها الخارجية، وبقدر ما تقدمه من إسهامات في مجال استتباب الأمن والاستقرار العالميين، وفي إطار تقديم صورة

قومية إيجابية؛ تسعى كل دولة إلى تحسين صورتها أمام الرأي العام العالمي من خلال السعي لبناء الثقة فيها كدولة ذات دور إيجابي فاعل، وكدولة متعاونة مع المجتمع الدولي؛ مما يجعلها جديرة بالثقة، وفي أحيان كثيرة يكون هذا أكثر فائدة وتأثيرًا من تقديم الدولة لصورتها كقوة عسكرية أو اقتصادية كبرى.

ويدخل في إطار ذلك ما تقدمه الدولة من رعاية للمؤتمرات الدولية، ومشاركتها في قوات حفظ السلام، وحملات الإغاثة التي تقوم بها المنظمات الدولية، ومدى إسهامها في حل النزاعات والصراعات بين الدول؛ مما يحقق حضورًا متزايدًا لها على مسرح السياسة الدولية، وتقاس مشاركة الدولة عالميًّا بعدة مؤشرات: عدد السفارات والقنصليات بالخارج، وعضويتها في المنظمات الدولية، وعدد المكاتب الثقافية، وعدد طالبي اللجوء السياسي.

ولا تقف مصادر القوة الناعمة عند تلك المصادر الثلاثة فقط، بل يمكن أن تضيف لها:

٤- الإسهام التاريخي والحضاري للدولة:

يظل ما تقدمه الدولة - عبر تاريخها الطويل- من إنجازات وإسهامات علامة بارزة ومصدرًا قويًّا من مصادر قوتها الناعمة، فالبلدان ذات الحضارة الضاربة في أعماق التاريخ لا تزال محل اهتمام وإلهام من مختلف دول العالم وشعوبه؛ فلا زالت مصر تحظى باحترام العالم وتقديره بالنظر لما قدمته من إنجازات ومعجزات على مدى قرون طويلة، ولا زال العلماء المسلمون الذين قدموا للبشرية العديد من الاختراعات والاكتشافات في مجالات متعددة يحظون بتقدير كبير من جانب المؤسسات العلمية العريقة في مختلف دول العالم، وتتباهى الدول بما يقدمه أبناؤها وعلماؤها من إنجازات واختراعات على مدى التاريخ.

٥- القوة الاقتصادية وحجم الصادرات:

رغم أن "الاقتصاد" يُعد أحد أهم مصادر القوة الصلبة، إلا أنه يُعد مصدرًا مهمًّا من مصادر قوتها الناعمة، ويقاس حجم الدول ومكانتها بما تقدمه من صناعات ومنتجات ينتفع بها كل شعوب العالم.

وكلما حققت الدولة اكتفاءً ذاتيًّا من إنتاجها الوطني يغنيها عن الاستيراد عظَّمت

من مكانتها وسمعتها الدولية، وكلما استطاعت الدولة تحقيق الاستقرار الأمني والاقتصادي زادت قدرتها على جلب الاستثمارات الأجنبية؛ مما يعزز من مكانتها وسمعتها الدولية.

٦- مستوى التعليم وسمعته:

يُعد مستوى التعليم الجامعي وما قبل الجامعي أحد أهم مصادر القوة الناعمة للدولة، وثمة العديد من المؤشرات لقياس جودة التعليم، من أهمها: عدد الجامعات المدرجة في التصنيف الدولي، وعدد البحوث المنشورة في دوريات علمية عالمية، وعدد مراكز التفكير والبحث العلمي، وحجم الإنفاق على التعليم، ونسبة الأمية، وعدد الفصول الدراسية قياسًا بعدد السكان، ومدى حصول المؤسسات التعليمية على معايير الجودة والاعتماد، ومدى توفر الظروف المناسبة للمعلمين لإنجاز أعمالهم .

٧- امتلاك تكنولوجيا الاتصال الحديثة:

لقد شهد العالم في السنوات الأخيرة طفرة تكنولوجية ومعلوماتية خطيرة وغير مسبوقة، قلبت كل موازين القوة في مجال الإعلام والاتصال، وتسابقت دول العالم على امتلاك الأقمار الصناعية، وإطلاق القنوات الفضائية، ومد سيطرتها على شبكة الإنترنت، وبسط نفوذها على المجال العام، ودعم قدراتها في مجال التواصل الرقمي.

وأصبحت تكنولوجيا الاتصال الحديثة وما أفرزته من مواقع الاتصال الاجتماعي مجالاً عامًّا افتراضيًّا – Virtual Public Sphere– عَبَّر من خلاله المستخدمون عن آرائهم المختلفة، والتعليق على قضايا الشأن العام، وممارسة الديمقراطية الافتراضية، وتحقيق المواطنة الفاعلة أو النشطة، ويُعد مؤشر الثورة الرقمية أحد أهم مؤشرات القوة الناعمة للدولة، ويقاس ذلك من خلال، عدد مستخدمي الإنترنت، وعدد المواقع الإلكترونية التي يسهم فيها المواطنون، والضوابط والتشريعات التي تحكم عمل وسائل الإعلام الجديدة، وعدد المتواصلين من الخارج مع حسابات القادة السياسيين.

ومع إدراك الدول المختلفة لأهمية وخطورة مواقع التواصل الاجتماعي؛ فقد تسابقت على امتلاكها وتكثيف تواجدها عليها سواء بشكل مباشر ورسمي، أو من خلال "ميليشيات

إلكترونية" تطلقها الدول أو المنظمات المختلفة للتأثير في الرأي العام، سواء المحلي أو العالمي؛ لتحسين صورتها والدفاع عن مصالحها، كما أصبح قادة العالم في المجتمعات الديمقراطية أكثر حرصًا على مخاطبة مواطنيهم من خلال مواقع التواصل الاجتماعي عوضًا عن وسائل الإعلام التقليدية، وأصبحت هذة المواقع من أقوى أسلحة الدول المتقدمة وأكثرها تأثيرًا فهي من يشكل عقول صناع القرار القادمين وهي من يحدد أجندة الشعوب. وأصبح الإعلام الجديد بكل وسائله هو العالم الحقيقي للشباب وليس العالم الافتراضي كما يتصور الكثيرون.

٨- الإنجازات الرياضية:

لم تعد الرياضة مجرد أنشطة يمارسها عدد من اللاعبين في ألعاب مختلفة، بل أصبحت صناعة ثقيلة تنفق عليها مليارات الدولارات، وتحقق أرباحًا بالمليارات أيضًا، وتزايدت أهمية الرياضة في السنوات الأخيرة باعتبارها أداة من أدوات التعايش المجتمعي والحوار بين الحضارات .

ولطالما أدت "دبلوماسية الرياضة" أدوارًا مهمة في العلاقات بين الدول وتحقيق السلام، وأدركت الدول المختلفة القيمة الحقيقية للرياضة باعتبارها وسيلة لتعزيز مكانتها على المستوى الدولي، وتعزز الدول مكانتها العالمية بحسب تنظيمها لبطولات عالمية، وبحسب ما أحرزته من تلك البطولات في الألعاب المختلفة، ويُعد المحترفون في الألعاب الدولية في مختلف دول العالم سفراء متميزين لبلدانهم الأصلية، وهكذا أصبحت الرياضة مصدرًا مهمًّا من مصادر القوة الناعمة في العصر الحديث، وربما يؤدي الرياضيون المحترفون في الخارج أدوارًا تفوق ما تؤديه السفارات وأعضاء الهيئات الدبلوماسية .

٩- الدبلوماسية الشعبية (الموازية):

لا تقتصر الدول المختلفة في ممارسة أنشطتها السياسية على المؤسسات الرسمية كالسفارات والقنصليات والبعثات الدبلوماسية فحسب، بل تؤدي الدبلوماسية الشعبية أو الموازية أدوارًا مهمة؛ لتحقيق أهداف السياسة الخارجية، ويُقصد بالدبلوماسية الشعبية:

تلك الأنشطة التي يقوم بها أفراد وجماعات أو منظمات، لا يمثلون الحكومات بشكل رسمي، مثال ذلك ما يقوم به أعضاء البرلمانات وممثلو الشعوب، أو الإعلاميون والمثقفون والذين يمكنهم تقديم صورة إيجابية عن المجتمعات والدول التي يمثلونها. وهؤلاء يعملون في مناخ متحرر بعض الشيء، وعلى المستويات الشعبية التي ربما تُعد الأعمق والأقوى من العلاقات الرسمية بين الدول والحكومات.

ومع تطور وسائل الاتصال الحديثة وزيادة حجم التبادل المعرفي؛ أصبحت الدبلوماسية الشعبية لُب القوة الناعمة، وأحد أهم أسلحتها، فلقد اكتسب المجتمع المدني والرأي العام قوة ضاغطة ومؤثرة في صنع القرار السياسي.

وتقوم فلسفة الدبلوماسية الشعبية على بناء منظومة تواصل فاعل لمخاطبة الشعوب والرأي العام في الدول الأخرى، من خلال الأحزاب والمؤسسات غير الحكومية وغير الربحية؛ لتحقيق أكبر قدر من الحوار البناء، وصنع الشراكات الإستراتيجية التي تُترجم إلى عمل بناء، يساعد السياسة الخارجية للدول على تحقيق أهدافها، وتمارس الدبلوماسية الشعبية أدوارها من خلال العديد من الأنشطة كتبادل الخبرات والاستشارات، والشركات العابرة للقارات، والأنشطة الثقافية والفنية المشتركة، والتوأمة بين المنظمات الشعبية.

١٠- المشاهير كوسطاء للسمعة:

ربما يحقق الأفراد ما تعجز عنه الحكومات في مجال السياسة الخارجية أيًّا كانت قوتها، ويحظى المشاهير في مجالات العلوم والفنون والرياضة بقبول وجماهيرية لدى الكثير من شعوب العالم تفوق - في كثير من الأحيان - رجال السياسة التقليديين.

ويُعد المشاهير وسطاء لسمعة بلدانهم - Reputational Intermediaries- في مختلف المحافل الدولية، باعتبارهم رأس المال الرمزي الذي يجب على الدول استثماره وتعظيمه لتحقيق أهدافها.

وبتنامي الوعي العام والشهرة الجماهيرية للمشاهير تزداد درجة الاعتراف بمكانتهم، التي يمكن للدولة البناء عليها؛ لتعزيز صورتها في عيون الآخرين.

وفي كتابه (نجوم السينما) أشار إدجار موران – Edgar Mouran– إلى نجاح النظام الرأسمالي الغربي في دمج المشاهير واستثمارهم لتحقيق أهداف اقتصادية ودعائية، فعظَّمت المجتمعات الغربية من شهرة هؤلاء النجوم، وأدمجتهم للمشاركة في مبادرات تنموية، ومواجهة الأزمات المختلفة في بلدانهم وخارجها، وتعتمد دول العالم المختلفة على تعظيم إنجازات أفرادها في مختلف المجالات، والإفادة منهم في دعم قواها الناعمة، والدفاع عن مصالحها، باعتبارهم سفراء لها في المحافل الدولية، وهو ما أطلق عليه دبلوماسية المشاهير –Celebrity Diplomacy– .

القوة الناعمة والصورة القومية:

ترتبط مفاهيم القوة الناعمة ارتباطًا وثيقًا بمفاهيم أخرى سبقتها في الظهور والاستخدام فيما عرف ببناء الصورة القومية للدولة، فجميع دول العالم تسعى إلى تقديم صورة إيجابية عن نفسها لدى الدول والشعوب الأخرى، وهو ما عرفه ميللر – Miller– بالصورة القومية، والتي تعني: "مجموعة من الانطباعات والأفكار والآراء والاتجاهات التي تشكل اتجاهًا سائدًا أو شائعًا، يمثل تصورًا عامًّا لشعب ما، أو دولة ما".

وتحرص كل دولة على أن يراها المجتمع الدولي في أفضل صورة، مستخدمة كل ما لديها من إمكانيات وقدرات مادية وبشرية؛ لإزالة أي جوانب أو معالم سلبية قد تطرأ على صورتها الحالية، وتجنب أي تغيرات غير مرغوبة يمكن أن تؤثر في تقييم العالم لها، ويمتد بناء الصورة القومية للدول إلى حرص كل دول العالم على بناء الثقة فيها كدولة ذات دور إيجابي، ومتعاونة مع المجتمع الدولي، وتسجل حضورًا في الأحداث العالمية؛ مما يعزز من مكانتها دون الحاجة لاستخدام قواها العسكرية أو السياسية.

وتقوم وسائل الإعلام بدور فاعل في صناعة الصورة القومية للدول، وتقديم صورة طيبة عنها؛ مما يسهم في خلق صورة ذهنية جيدة عنها لدى الشعوب الأخرى، إلا أن هناك العديد من العوامل المؤثرة التي تسهم في تشكيل الصورة القومية للدولة، والتي يمكن لوسائل الإعلام توظيفها لبناء صورة قومية مشرقة للدولة، وترويجها على نطاق واسع، ومن تلك العوامل:

– عناصر القوة الحقيقية للدولة، سواء العسكرية، أو السياسية، أو العلمية، أو الاقتصادية، أو الثقافية، وهي التي بإمكانها تحديد مكانة الدولة على المسرح العالمي.

– الحضور السياسي والدبلوماسي للدولة في الخارج، وذلك من خلال السفارات والبعثات الدبلوماسية في عواصم العالم.

– القوة الناعمة للدولة من فنون، وآداب، وثقافة، ومدى قدرة الدولة على توظيفها لخدمة مصالحها.

– الموقع الجغرافي للدولة، وما يمثله من قدرة على الاتصال والتواصل مع الدول والشعوب الأخرى.

– الوزن النسبي للدولة في التفاعل مع الأحداث الإقليمية والدولية، ومكانتها بوصفها قوة مؤثرة إقليميًّا ودوليًّا.

– وسائل الإعلام التابعة للدولة، والتي تعكس صورة لواقعها تقدمه للجمهور المستهدف، سواء في الداخل أو الخارج.

– الحضور الشعبي للدولة، والمتمثل في الجاليات، والمغتربين، والبعثات التعليمية، والدارسين المنتمين للدولة في الخارج.

– الصورة التي يظهر بها مواطنو الدولة أمام الزوار والسائحين من الدول الأخرى، والتي تعكس سلوكياتهم وتعاملاتهم مع الآخر.

وتتفق معظم الدراسات الإعلامية على أن المادة الإخبارية التي تقدمها وسائل الإعلام التقليدية والجديدة تُسهم بشكل فاعل في خلق صورة الدول والشعوب الأخرى في أذهاننا، من خلال ما تقدمه من تغطية إخبارية للأحداث التي تقع في تلك الدول، وتزداد أهمية تلك الوسائل في تشكيل صورة الدول والشعوب لدى الجمهور المستهدف، في ظل صعوبة الاحتكاك المباشر والاطلاع على ما يجري من أحداث .

وإذا كنا لا نستطيع – على الدوام– رؤية الأحداث مباشرة، فإننا نصدق ما تقدمه وسائل الإعلام على أنه الأحداث، وفي ظل احتدام المنافسة والصراع بين وسائل الإعلام وتوظيفها

لخدمة أغراض الدعاية الدولية، فإن المواطنين العاديين ربما يتعرضون لأخبار كاذبة أو مغلوطة عن دول وشعوب أخرى؛ تسهم في تكوين صورتهم لدى هؤلاء المواطنين.

القوة الناعمة وسمعة الدول:

في ظل التطورات التكنولوجية المذهلة التي شهدها عالمنا في السنوات الأخيرة، فقد تزايد اهتمام الدول بتعزيز مكانتها على المستوى الدولي، ومحاولة بناء صورة قومية مقبولة لدى الدول والشعوب الأخرى، وأصبحت هذة الصورة بمثابة "علامة تجارية" تحتاج إلى جهود تسويقية لتعظيم سمعة الدولة، وأصبح مفهوم سمعة الدولة – State Reputation– مصطلحًا مستخدمًا على نطاق واسع؛ لتعظيم مكانة الدول وتسويقها على المستوى الدولي، بعد أن كان المفهوم مقتصرًا على بناء سمعة السلع والعلامات التجارية وتسويقها، وفي عام ١٩٩٧م تأسست هيئة استشارية عالمية تقدم مساعداتها لعدد كبير من الشركات والدول؛ لزيادة وتعظيم سمعتها من خلال قياس درجة ثقة الشعوب فيها، ومدى تقديرهم واحترامهم لها، وقياس مشاعرهم نحوها وارتباطهم العاطفي بها.

وتُؤسس سمعة الدول بناءً على عدة عوامل، من أهمها:

الجاذبية السياحية، والقدرات البشرية، ومدى عدالة الحكومة، وجاذبية الثقافة والرياضة، وجودة السلع التصديرية، وإقبال المستثمرين، ومدى الرغبة في زيارتها أو الإقامة فيها.

وينطلق بناء السمعة من خلال حقيقة أن أفكارنا عن بلد ما غالبًا ما تكون أقوى من الحقائق المجردة عنها، فالسمعة الطيبة للبلد يمكن أن تؤثر وبشكل قوي في مدى قبولنا لسياستها الخارجية، ونظامها الحاكم، وتحديد مدى رغبتنا في الاستثمار فيها، أو زيارتها، أو الإقامة فيها.

وانتشرت في المجتمعات المتقدمة شركات العلاقات العامة المتخصصة في مجال بناء السمعة وصناعة الصورة والتأثير في الرأي العام؛ لتحقيق مصالح عملائها من الدول والمؤسسات، ويصدر معهد السمعة الأمريكي – American Reputation Institute – تقارير سنوية عن أفضل الدول من حيث السمعة، بناءً على معايير محددة، يتم قياسها من خلال دراسات واستقصاءات متعددة.

والمتابع لمعايير قياس القوة الناعمة يجد تشابهًا كبيرًا بينها وبين المعايير التي تبني الدول من خلالها سمعتها أو صورتها القومية، ولعل الرابط الرئيس بين كل تلك المعايير هو : حرص الدولة على تعزيز مكانتها الدولية اعتمادًا على عناصر الجذب والإبهار بدلاً من عناصر الإكراه والإجبار، وهو الأساس الذي قامت عليه نظرية القوة الناعمة.

القوة الناعمة لمصر:

تُعد مصر واحدة من أهم وأكبر دول الشرق الأوسط، وأكثرها تأثيرًا في الأحداث التي تمر بها، وحققت مصر مكانتها تلك من خلال تاريخها الطويل، بوصفها من أقدم دول العالم، وامتداد تأثيرها الحضاري منذ عهد الفراعنة وحتى اليوم.

وتُدرك القوى العظمى في العالم الأهمية الإستراتيجية لمصر بما تملكه من عناصر القوة الصلبة، كالموقع الجغرافي المتميز، وامتداد حدودها عبر قارتي أفريقيا وآسيا، واحتوائها على واحد من أهم وأخطر الممرات المائية وطرق التجارة العالمية، إلى جانب ما تذخر به من قوة بشرية، إذ تُعد أكبر دول المنطقة من حيث التعداد السكاني، إلى جانب ما تملكه من قدرات عسكرية، فبحسب التصنيف الذي يصدره موقع Global Fire Power غير الرسمي والمتخصص في رصد قوى الجيوش في العالم وفقًا لما تعلنه كل دولة عن إمكانياتها العسكرية، فقد جاءت مصر في المرتبة الأولى عربيًّا والثانية عشر عالميًّا.

وطوال تاريخها القديم والمعاصر كانت مصر ولا تزال دولة مؤثرة في محيطها الإقليمي، فهي القوة الحامية للأمن القومي العربي، كما تمثل ثقلاً إستراتيجيًّا مهمًّا على المستوى الدولي.

ولقد شهدت القوة الصلبة عسكريًّا واقتصاديًّا تقلبات عديدة على مدى التاريخ صعودًا وهبوطًا، فقد خاضت مصر عدة حروب دفاعًا عن مصالحها وحدودها، ونُصرة لأشقائها العرب وأصدقائها في أفريقيا وآسيا، ودافعت عن تحرر واستقلال الشعوب المحتلة، وقامت بدور فاعل في طرد القوى الاستعمارية، وتحجيم أدوارها في العديد من دول العالم.

لقد حققت مصر مكانتها الإقليمية والدولية ليس اعتمادًا على ما تملكه من مصادر القوة

الصلبة فحسب، بل كان لقوتها الناعمة التأثير الأكبر والدور الأبرز في صياغة الوجدان للشعوب العربية، فقد صدرت مصر نمط الحياة المصرية من قيم، وفنون، ونظم تعليمية، وآداب، وسلوكيات، لكل شعوب المنطقة العربية، وأدت الجامعات المصرية والمؤسسات الدينية في مصر دورها في نشر التنوير والوسطية لكل البلدان العربية، بل امتد تأثيرها ليشمل دول القارة الأفريقية وبعض البلدان الآسيوية.

واعتمدت مصر في بسط نفوذها الحضاري والثقافي على جاذبية نظامها السياسي والاجتماعي، وشرعية سياستها الخارجية وممارستها الدبلوماسية وقدرتها على التأثير والنفاذ، حيث امتد تأثير النموذج المصري لكل مكان، وحازت مصر على ثقة وتقدير الشعوب العربية والأفريقية والآسيوية، وكل القوى المحبة للسلام.

وكانت مصر دائمًا حاضرة وقوية فى مواجهة المحن والأزمات وسرعان ما تسترد عافيتها؛ فقد حققت انتصارًا باهرًا في حرب أكتوبر ١٩٧٣م المجيدة، وعلى الرغم مما شهدته عام ٢٠١١م من تدخلات لقوى خارجية أرادت إسقاط الدولة لصالح أطراف إقليمية ودولية معادية، بمساعدة جماعة الإخوان الإرهابية لتلك الأطراف ومشاركتها في مؤامرة إسقاط الدولة المصرية، رغبة منها في السيطرة والقفز إلى سدة الحكم، واختطاف الدولة، ومصادرة الهوية المصرية، والتفاوض مع أعدائها لتقسيم الدولة وبيع أراضيها تحقيقاً لسياسة الفوضى الخلاقة التي تهدف إلى تمزيق المنطقة العربية إلى دويلات صغيرة، يغلب عليها طابع الصراع العرقي، والديني، والطائفي؛ إلا أن ثورة الشعب المصري جاءت بمؤازرة قواته المسلحة في يونيو ٢٠١٣م، لتُعيد تصحيح الأوضاع، وتُسقط حكم الإخوان، وتسترد هوية مصر المُستلبة، لتشهد مصر وقفة متأنية لإعادة بناء الدولة من جديد؛ لتعيد لوجه مصر إشراقته وحيويته، وتبث الأمل في أن تستعيد مصر عافيتها، وتُطلق إبداعاتها وقواها الناعمة؛ لتواصل إشعاعها وتأثيرها من جديد.

مصادر قوة مصر الناعمة :

تمتلك مصر العديد من مصادر القوة الناعمة، وسوف نستعرض – في عجالة– أهم ما تملكه مصر من مصادر القوة الناعمة:

١- التأثير الحضاري:

يمتد تاريخ مصر عبر آلاف السنين، شَيَّدت من خلاله الحضارات، وواجهت فيه كل الأعداء الذين هددوا حدودها أملاً في إسقاطها، وطوال التاريخ قدمت مصر إنجازات عدة للحضارة الإنسانية، فلا زالت مصر الفرعونية تلهب خيال الشعوب في كل دول العالم، وتثير إعجابهم بما قدمته من آثار تقف شاهدة على عظمة مصر القديمة.

كما حظيت مصر بمكانة عظيمة في مختلف الديانات السماوية، فلقد ذكرت مصر في القرآن الكريم أربع مرات بشكل صريح، وفي أكثر من عشرين موضعًا بالإشارة، كما ذكرت مصر في التوراة والإنجيل أكثر من (٧٠٨) مرات. وعلى أرضها مر أنبياء الله إبراهيم، ويعقوب، ويوسف، وموسى، وهارون، وعيسى - عليهم السلام- كما كانت السيدة سارة زوجة سيدنا إبراهيم مصرية، والسيدة ماريا القبطية زوجة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مصرية أيضًا، وقد أكسب هذا التكريم الإلهي مصر مكانة متميزة في وجدان كل الشعوب المؤمنة في مختلف أنحاء العالم.

٢- الحضور المصري على الساحة الدولية:

قلنا إن مصر كانت وماتزال قوة إقليمية مؤثرة، تحظى بثقة واحترام دول العالم أجمع، فقد كانت مصر من الدول الرئيسية المؤسسة لمنظمة الأمم المتحدة، وكانت دولة مؤسسة لجامعة الدول العربية، ومنظمة الوحدة الأفريقية، وحركة عدم الانحياز، ولا زال لمصر تأثير كبير في الأحداث العالمية، ودور بارز في أنشطة المنظمات الدولية، وهي لاعب فاعل في كل أحداث المنطقة العربية، وتعرف كل القوى الكبرى أنه لا حرب ولا سلام في منطقة الشرق الأوسط إلا من خلال مصر.

٣- الأزهر الشريف والمؤسسات الدينية الإسلامية:

على مدى تاريخها قادت مصر معركة التنوير والوسطية، وصدرت للعالم كله علوم القرآن والسنة النبوية الشريفة، ويمثل الأزهر الشريف واحدًا من أقوى مصادر القوة الناعمة؛ إذ لا يقتصر دوره على نشر تعاليم الدين الإسلامي الوسطي واللغة العربية فقط، بل إن لديه دورًا

ثقافيًّا وتنويريًّا وعلميًّا واسعًا، ويحظى علماء الأزهر الشريف وشيخه الجليل بمكانة راقية ومتميزة في جميع أنحاء العالم، ولطالما أدوا دورًا وطنيًّا فاعلاً في كل ما مرت به مصر ودول العالم العربي والإسلامي من أحداث .

ويدرس في الأزهر أكثر من أربعين ألف وافد من مختلف دول العالم، وقد تخرج فيه الآلاف الذين أصبحوا سفراء للأزهر في بلدانهم، وتولى الكثيرون منهم مناصب مرموقة في أوطانهم، وظلوا على وفائهم وتواصلهم مع الأزهر، وتجسد ذلك في رابطة خريجي الأزهر الشريف، والتي تُعد بمثابة قناة للتواصل بين جامعة الأزهر وخريجيها في كل أنحاء العالم.

وفي رحاب الأزهر تأسس بيت العائلة المصرية، والذي يُعد نموذجًا مشرفًا وتطبيقًا عمليًّا لقيم المواطنة واحترام الآخر، وفي عام ٢٠١٩م، وقع الإمام الأكبر شيخ الأزهر مع بابا الفاتيكان وثيقة "الأخوة الإنسانية"، والتي تُعد بنودها شبيهة بالإعلان العالمي لحقوق الإنسان، وتجسد قيم الرحمة والمحبة والإنصاف والحوار بين مختلف الديانات والثقافات.

كما تمثل وزارة الأوقاف المصرية بقيادتها الواعية اليوم إضافة متميزة لقوة مصر الناعمة، من خلال ما تقوم به من جهد حثيث لإعادة الفهم الصحيح للدين، وتجديد الخطاب الديني؛ ليتواكب مع مستحدثات العصر، وقد قام معالي وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور محمد مختار جمعة ولا يزال بدور وطني فاعل، وغير مسبوق، في مواجهة ظاهرة التطرف الديني، واستعادة الوجه الحقيقي للإسلام الوسطي؛ ليمحو ما صدرته الجماعات الإرهابية من صورة قاتمة وفهم مغلوط للدين الإسلامي شوهت –من خلالها– صورة الإسلام والمسلمين.

ولعل أهم ما يمكن الإشارة إليه من جهود وزارة الأوقاف في هذا الصدد ما يلي:

– استعادة المنابر من أيدي شيوخ الفتنة والجماعات الإرهابية المتطرفة التي اختطفتها إبان حكم الجماعة الإرهابية، وما تبع ذلك من الإشراف المباشر للوزارة على كل ما يتم في المساجد من أنشطة وفعاليات.

– توحيد خطبة الجمعة من خلال تحديد الأطر العامة للموضوعات التي تتضمن الحديث في أمور الدين وربطها بكل مستجدات الأحداث على الساحة، ويُترك للأئمة

والخطباء معالجتها بأسلوبهم، وتقوم الوزارة بترجمة خطبة الجمعة وبثها بثمان عشرة لغة، إضافة إلى لغة الإشارة.

– مجموعة الإصدارات المتميزة التي يصدرها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والتي تعالج قضايا دينية وفقهية مهمة، وتجيب على أسئلة الكثيرين حول موقف الدين الإسلامي من العديد من الموضوعات المعاصرة، ومن أهم تلك الإصدارات: فقه الدولة وفقه الجماعة، وحماية دور العبادة، وبناء الشخصية الوطنية، والإلحاد والمخاطرة، والحوار الثقافي بين الشرق والغرب، وفقه السيرة النبوية قراءة جديدة ، والفهم المقاصدي، وبناء الوعي.

– القيام بجهود مخلصة لإعادة تأهيل الأئمة والدعاة، وتزويدهم بمختلف المهارات التي تجعل منهم دعاة عصريين يحملون رسالة الدين الإسلامي إلى كل مكان، وفي هذا الإطار جاء إنشاء أكاديمية تدريب الأئمة والواعظات في مدينة السادس من أكتوبر، والتي صُممت على أحدث طراز، وتم تزويدها بأحدث الإمكانيات والأجهزة، ويتلقى فيها الدارسون المحاضرات في مختلف العلوم الحديثة إلى جانب علوم الفقه، ويحصلون على دورات متقدمة في مجالي اللغة الأجنبية وعلوم الحساب الآلي والتعامل مع مستحدثات العصر التكنولوجية، وتولي الوزارة اهتمامًا خاصًّا بالشباب من الأئمة والدعاة، من خلال توليهم المناصب القيادية بصورة لم تشهدها الوزارة من قبل وإعدادهم للعمل داخل مصر وخارجها، كما تقوم الوزارة بتقديم خدماتها لتأهيل الدعاة من مختلف دول العالم الإسلامي، في إطار دور مصر التنويري لنشر صحيح الدين.

– الانفتاح على مختلف الوزارات والمؤسسات الوطنية المصرية والإسلامية، والمشاركة الفاعلة في دعم ورعاية الفعاليات التي تهدف إلى بناء الشخصية الوطنية، ودعم قيم الانتماء، ومكافحة الإرهاب، وتحقيق قيم المواطنة، والحوار البناء مع الآخر.

– تبني قضايا معاصرة مهمة من خلال المؤتمرات السنوية التي يعقدها المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، والتي يدعى لها نخبة من العلماء والمتخصصين ووزراء الأوقاف والمفتين من مختلف دول العالم؛ لتكون فرصة لتبادل الرؤى حول العمل الإسلامي، وتوثيق التعاون البنّاء بين مختلف المؤسسات الإسلامية، ونشر الفكر الوسطي المستنير.

– الاهتمام المتزايد من جانب الوزارة باستخدام مختلف وسائل الإعلام الحديثة، ودعم حضورها على مواقع التواصل الاجتماعي بمختلف لغات العالم؛ لتقديم صورة صحيحة عن الإسلام الذي يرفض كل أشكال العنف والقتل والإرهاب وينبذ كل دعاوي الإقصاء والنفي والتمييز.

وتُعد دار الإفتاء المصرية نموذجًا متميزًا كقوة ناعمة لمصر، حيث تؤدي في ظل قيادتها المستنيرة دورًا مهمًّا في مكافحة الإرهاب، وتأصيل قيم المواطنة وقبول الآخر، ومحاربة الفتاوى التكفيرية والتضليلية، وذلك من خلال عدة أساليب، لعل من أهمها: تفعيل مواقعها الإلكترونية لنشر صحيح الفتاوى في مختلف مناحي الحياة، وتفعيل دور مرصد الفتاوى التكفيرية والآراء المتشددة، والذي يهدف إلى متابعة ورصد كل ما يصدر من فتاوى مغلوطة وكاذبة وتصحيحها، ونشر ذلك على نطاق عالمي واسع، وتسعى دار الإفتاء إلى تقديم الوجه المشرق للإسلام ونشر الفتاوى الصحيحة في إطار جهودها المكثفة لمواكبة العصر وتجديد الخطاب الديني.

٤– الكنيسة المصرية:

تُعد الكنيسة المصرية واحدة من أقدم كنائس العالم حيث تأسست في القرن الميلادي الأول، وترتبط بعلاقات وثيقة مع الكنائس الأرثوذوكسية في العالم، وحتى وقت قريب كان قساوسة الكنائس الإثيوبية يعينون من قبل الكنيسة المصرية، وتمثل الكنيسة المصرية في المهجر قوة لا يُستهان بها، حيث يصل عدد الكنائس التابعة لها خارج مصر (٣٦٠) كنيسة، بالإضافة إلى ثماني أديرة للرهبان وديرين للراهبات.

وطوال تاريخها أدت الكنيسة المصرية ولا تزال أدوارًا بارزة كقوة ناعمة لمصر، وكان لها العديد من المواقف الوطنية المشرفة في كل ما مر به الوطن من أحداث، ويمثل باباوات الكنيسة المصرية سفراء متميزين للتعبير عن وجه مصر الحضاري كرمز للتآخي والمواطنة في مختلف أنحاء العالم.

ويسهم أقباط مصر في صياغة الوجدان المصري والعربي بما قدموه من إسهامات علمية

وفنية وأدبية، كما يسهمون في الحياة السياسية والبرلمانية بشكل فاعل، كما يمثل أقباط المهجر إضافة بارزة للقوة الناعمة لمصر، وذلك من خلال ما يقدمونه من دعم للدولة، وما يقومون به من تأثير على صناع القرار في البلدان التي يعيشون فيها؛ من أجل نصرة القضايا الوطنية ومساندة الدولة المصرية.

٥- الثقافة والإعلام والفنون:

تمتلك مصر أكبر ذخيرة ثقافية وفنية في المنطقة العربية، وكانت الثقافة والفنون المصرية ولا تزال مصدر إلهام وإعجاب من كل الشعوب العربية، وأسهم الكتاب والمفكرون والفنانون المصريون في تشكيل الوعي والشخصية العربية على مر العصور.

ولا تزال مصر الأكثر إنتاجًا للصناعات الثقافية من كتب، وأفلام سينمائية، ومسلسلات تليفزيونية، وألبومات غنائية، كما أنها تصدر فنونها وثقافتها وموسيقاها إلى كل دول المنطقة العربية، ويحظى نجومها بجماهيرية واسعة لدى الشعوب العربية، ووصل البعض منهم للعالمية، كما نقل الفنانون والمثقفون المصريون خبراتهم لكل البلدان والشعوب العربية، وتركوا بصماتهم واضحة على الإنتاج الثقافي والفني العربي.

٦- الرموز المصرية في مختلف المجالات:

قدمت مصر عبر تاريخها رموزًا وشخصيات أدت أدوارًا مهمة في مسيرة الإنسانية، وكانوا أدوات فاعلة لقوة مصر الناعمة، فقد حصل أربعة مصريين على جائزة نوبل للسلام في مجالات مختلفة، كما كان الدكتور بطرس بطرس غالي أول أمين عام للأمم المتحدة من الدول العربية والأفريقية، كما برع علماء مصريون في تحقيق إنجازات علمية وطبية عالمية، ويشغل العلماء المصريون بالخارج مناصب علمية مرموقة، فحسب أحدث إحصائيات اتحاد المصريين العاملين بالخارج فإن هناك اثنين وأربعين عالمًا مصريًّا في وظيفة رئيس جامعة، ويوجد في الولايات المتحدة الأمريكية وحدها ثلاثة آلاف عالم مصري في مختلف التخصصات، ويبرز العديد من المصريين ليثبتوا وجودهم في مجالات العمل المختلفة على المستوى العالمي .

٧- الآثار والمناطق السياحية:

تمتلك مصر العديد من الآثار التي تؤرخ لحقب وحضارات متنوعة، وتشهد الآثار المصرية تنوعًا لا نجده في آية دولة أخرى، فإلى جانب الآثار الفرعونية نجد الآثار القبطية، والإسلامية، والرومانية، واليونانية، وتحظى الآثار المصرية باهتمام كبير يجعل من مصر مقصدًا سياحيًّا مهمًّا للعديد من السياح من مختلف دول العالم.

كما تمتلك مصر تنوعًا هائلاً في المناطق السياحية، سواء في أسوان والأقصر، أو شرم الشيخ والغردقة، وغيرها من المناطق؛ مما جعل السياحة في المرتبة الثانية للدخل القومي في مصر.

وتُعد آثار مصر قوة ناعمة لها؛ فهي تعكس تنوعها الثقافي والحضاري، وتجسد تقبل مصر للآخر أيًّا كانت ديانته أو ثقافته أو هويته.

وتنظم مصر باستمرار معارض خارجية للآثار المصرية تحظى بإقبال عالمي لافت، وتمثل هذه المعارض خير سفير لمصر وحضارتها العريقة، فإلى جانب ما تقوم به من دور في إبراز روعة الحضارة المصرية، فإنها وسيلة مهمة للترويج السياحي، ودعوة لكل شعوب العالم لزيارة مصر والاستمتاع بشواطئها وكنوزها وأجوائها.

ونخلص من ذلك كله إلى أن مصر تملك من الثروات العلمية والفكرية والثقافية والفنية، والرياضية المتنوعة الكثير، والذي يجعلها في مقدمة دول المنطقة من حيث القوة الناعمة، ولازالت تحظى بجاذبية تاريخية وحضارية في عقول وقلوب شعوب العالم كله، كما أنها قادرة على تفعيل قواها الناعمة، وتجاوز كافة العقبات التى قد تواجهها، فقد أبهر الشعب المصري العالم كله بقيامه بثورة أسقطت الجماعة الإرهابية التي أرادت تغيير هوية مصر لصالح فكر رجعي عميل خائن.

ويظل الشعب المصري نموذجًا لكل الشعوب الحرة في كل مكان، وأيقونة ثمينة ستظل درسًا لكل الأجيال عبر التاريخ.

الهوامش:

(١) الأنفال: ٦٠ .

(٢) هود: ٥٢.

(٣) الروم: ٩.

(٤) فاطر: ٤٤.

(٥) أخرجه مسلم، عن أبي هريرة ﷺ ، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير إلى الله، حديث رقم ٢٦٦٤.

(٦) الضحى: ٦-٨.

(٧) الأنفال: ٦٠.

(٨) الروم: ٩.

(٩) الأنعام: ٤٤.